سورة التوبة

وفي قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

فإن قيل: لأي سبب تركت كتابة البسملة في أول هذه السورة بخلاف سائر السور؟

قلنا: لما تشابهت هي والأنفال واختلفت الصحابة في كونها سورتين أو سورة واحدة تركت بينهما فرجة، عملاً بقول من قال: هما سورتان، وتركت البسملة بينهما عملاً بقول من قال: هما سورة واحدة، وممن قال بذلك قتادة رحمه الله. الثاني: أن اسم الله تعالى سلام وأمان، فلا يناسب كتابتها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) خص الأمر بالقتال بأئمة الكفر، مع أن النكث والطعن ليس مخصوصًا بهم، بل هو مسند إلى جميع المشركين؟

قلنا: المراد بأئمة الكفر رءوس المشركين وقادتهم. وقيل: كفار مكة؛ لأنهم كانوا قدوة جميع العرب في الكفر، فكأن النكث والطعن لم يوجد إلا منهم لما كانوا هم الأصل فيه، فلذلك خصهم بالذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

فإن قيل: كيف قال: (وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله)، ونحن نسأل اليهود والنصارى عن ذلك فينكرونه ويجحدونه؟

قلنا: طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا كلهم، فالألف واللام للعهد لا للجنس أو أطلق اسم الكل وأراد البعض، كما قال تعالى: (وإذ قالت

الملائكة يا مريم)، وإنما قال لها جبريل وحده.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ذلك قولهم بأفواههم) وقول كل أحد إنما يكون بفمه؟

قلنا: معناه: أنه قول لا تعضده حجة وبرهان، إنما هو مجرد لفظ لا أصل له. وقيل: ذكر ذلك للمبالغة في الرد عليهم والإنكار لقولهم، كما يقول الرجل لغيره: أنت قلت لي ذلك بلسانك.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فإن قيل: دين الحق هو من جملة الهدى، فما فائدة عطفه على الهدى في قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق)؟

قلنا: المراد بالهدى هنا القرآن، وبدين الحق الإسلام، وهما متغايران.

الثاني: أنه وإن كان داخلاً في جملة الهدى، ولكنه خصه بالذكر تشريفًا له وتفضيلاً، كما في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[2].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليظهره على الدين كله) ولم يقل على الأديان كلها، مع أنه أظهره على الأديان كلها؟

قلنا: المراد بالدين هنا اسم الجنس، واسم الجنس المعرف باللام يفيد معنى الجمع، كما في قولهم: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس.

وفي قوله تعالى: ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]؟

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ والمذكور الذهب والفضة،

(١) البقرة: ٢٣٨.
(٢) البقرة: ٩٨.

فأعاد الضمير على أحدهما،

قلنا: أعاد الضمير على الفضة لأنها أقرب المذكورين، أو لأنها أكثر وجودًا في أيدي الناس، فيكون كنزها أكثر، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ**﴾. الثاني: أنه أعاد الضمير على المعنى؛ لأن المكنوز دنانير ودراهم وأموال، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**﴾[١] لأن كل طائفة مشتملة على عدد كثير، وكذا قوله تعالى: ﴿**هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾[٢] يعني: المؤمنين وللكافرين. الثالث: أن العرب إذا ذكرت شيئين يشتركان في المعنى تكتفي بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن ذكر الآخر لمعرفة السامع باشتراكهما في المعنى، ومنه قول حسان بن ثابت:

إِنَّ شَرخَ الشَّبابِ وَالشَّعَرَ الأَسـ ... ـوَدَ مَا لَمْ يُعاصَ كانَ جُنونَا

ولم يقل: ما لم يعاصيا.

وقول الآخر:

مَن يَكُ أَمسى بِالمَدينَةِ رَحلُهُ ... فَإِنّي وَقَيّارٌ بِها لَغَريبُ

ولم يقل لغريبان، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ**﴾[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا**﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا**﴾[٦] من هذا القبيل؛ لأن الأخبار ثم عن أحدهما لوجود لفظه «أو» وهي لإثبات أحد المذكورين، فمن جعله نظير هذا فقد سها إلا أن يثبت أن «أو» في هاتين الآيتين بمعنى الواو، وفي هاتين الآيتين لطيفة: وهي أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على

(١) الحجرات: ٩.
(٢) الحج: ١٩.
(٣) التوبة: ٦٢.
(٤) الأنفال: ٢٠.
(٥) الجمعة: ٢١.
(٦) النساء: ١١٢.

أحدهما أعاده في الآية الأولى على التجارة، وإن كانت أبعد، ومؤنثة أيضًا لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من اللهو؛ لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو، أو لأنها أكثر نفعًا من اللهو، أو لأنها كانت أصلاً واللهو تبعًا لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ما عرف من تفسير الآية، وأعاده في الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا) وهي عند الناس أيضًا كذلك في كل ملة سواء كانت الشهور قمرية أو شمسية؟

قلنا: فائدته أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس وابتدعوه بعقولهم من ذات أنفسهم، وإنما هو أمر أنزله الله في كتبه على ألسنة رسله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) خص الأربعة الحرم بذلك وظلم النفس منهي عنه في كل زمان؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في قوله تعالى: (فيهن) راجع إلى قوله: (اثنا عشرًا شهرًا) لا الأربعة الحرم فقط، فاندفع السؤال.

الثاني: أن الضمير راجع إلى الأربعة الحرم فقط، إما لأنها أقرب، أو لما قاله الفراء: إن العرب تقول في العشرة وما دونها لثلاث ليال خلون وأيام خلون وهن وهؤلاء، فإذا جاوزت العشرة قالت خلت ومضت، للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها، وبين الكثير وهو ما زاد عليها، ولهذا قال في الاثني عشر «منها»، وقال في الأربعة «فيهن» فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكر إما لمزيد فضلها وحرمتها عندهم في الجاهلية فيكون ظلم النفس فيها أقبح، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ وإن كان ذلك منهيًا عنه في غير الحج أيضًا، أو لأن المراد بالظلم النسيء، وهو كان مخصوصًا بها، أو لقتال الكفار فيها ابتداء أو ترك قتالهم إذا ابتدءوا وكل ذلك مخصوص بها؟

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فيهن) والشهر مذكر فقياسه: فيها؟

قلنا: الضمير بالهاء والنون لا يختص بالمؤنث، ولو اختص فالمراد بقوله: «فيهن» ساعات الأشهر وهي مؤنثة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) والإنسان لا يظلم نفسه بل يظلم غيره؟

قلنا: لا نسلم أنه لا يظلم نفسه قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٢]. الثاني: أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضًا كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٥]. الثالث: أن معناه: فلا تنقصوا حظ أنفسكم من الآخرة بالمعصية، فإن من عصى فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها وتوجيه العتاب والذم إليها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٦]. الرابع: أن كل ظالم لغيره فهو ظالم لنفسه في الحقيقة؛ لأن ضرر ظلمه في حق المظلوم ينقطع عن قريب لأنه لا يتعد الدنيا، وضرر ظلمه في حق نفسه يراه في الآخرة حيث لا ينقطع، أو يكون أشد وأدوم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

فإن قيل: قوله تعالى: (إنما النسيء زيادة في الكفر) يدل على قبول الكفر للزيادة والنقصان، فكذلك الإيمان الذي هو ضده، فيكون حجة للشافعي رحمه الله عليه في قوله:

---

(١) النساء: ١١٠.
(٢) الطلاق: ١.
(٣) البقرة: ٨٤.
(٤) البقرة: ٥٤.
(٥) الحجرات: ١١
(٦) الطلاق: ١.

الإيمان يقبل الزيادة والنقصان.

قلنا: معناه زيادة المعصية في الكفر.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

فإن قيل: قوله تعالى: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) إن كان نهيًا فأين الجزم؟ وإن كان نفيًا فقد وقع المنفي؛ لأن كثيرًا من المؤمنين المخلصين استأذنوه في التخلف عن الجهاد لعذر، ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[1] فقيل: إن المراد به كل أمر طاعة اجتمعوا عليه كالجهاد والجمعة والعيد ونحوها؟

قلنا: هو نهي بصيغة النفي كقوله تعالى: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[2]. الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[3]. الثالث: أن المراد بقوله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ﴾ الآية الاستئذان في التخلف عن الجهاد من غير عذر، وكذا المراد بالآية التي بعدها، وبقوله: ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ إباحة الاستئذان في التخلف عن الأمر الجامع لعذر فلا نسخ لإمكان العمل بالآيتين؛ لأن محل الحكم مختلف، وهو وجود العذر وعدمه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وقيل اقعدوا مع القاعدين) أخبر أنهم أمروا بالقعود، وذمهم على القعود والتخلف عن الخروج للجهاد والاستئذان في القعود؟

قلنا: ليس في الآية ما يدل على أن الله تعالى هو الآمر لهم، فقيل: الآمر لهم بذلك هو الشيطان بالوسوسة والتزيين. الثاني: أن بعضهم أمر بعضًا. الثالث: أن النبي ﷺ قال لهم

(١) النور: ٦٢.
(٢) الحج: ١٩٧.
(٣) النور: ٦٢.

ذلك غضبًا عليهم. الرابع: أنه أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم كقوله تعالى: (اعملوا ما شئتم) يعضده قوله تعالى: (مع القاعدين) أي: من النساء والصبيان والمرضى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد علم أن المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ما زادوهم إلا خبالاً، أي: فسادًا، ولأوضعوا خلالهم، أي: ولأسرعوا السعي بينهم بالنمائم، فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين؟

قلنا: أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجة ولإظهار نفاقهم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

فإن قيل: قوله تعالى: (قل أنفقوا طوعًا أو كرهًا لن يتقبل منكم إنكم كنتم قومًا فاسقين) يدل على أن الفسوق يمنع قبول الطاعات؟

قلنا: المراد بالفسق هنا الفسق بالكفر والنفاق لا مطلق الفسق، وذلك محبط للطاعات ومانع لقبولها، ويعضده قوله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤].

فإن قيل: لم عدل في آية الصدقات عن اللام التي في المصارف الأربعة الأخيرة؟

قلنا: للتنبيه على أنهم أقوى في استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره؛ لأن «في» للظرفية والوعاء، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مصبًا لها، لما ورد في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفي فك الغارمين عن الدين من التخليص والإنقاذ، والجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج الفقير بيّن الفقر، ومثل هذه العبادة الشاقة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، ولا يرد المؤلفة قلوبهم؛ لأن بعضهم كفار وبعضهم مسلمون ضعيفو النية في الإسلام.

فكيف يعارض بهم من ذكرنا، أو لأن الله تعالى علم أن وجوب إعطائهم سينسخ، فلذلك جعلهم في القسم المقدم الذي هو أضعف.

فإن قيل: لم كرر «في» في الأربعة الأخيرة ولم يكرر اللام في الأربعة الأولى؟

قلنا: للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الأخيرين على الرقاب والغارمين من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة تأكيد كقولك: مررت بزيد وبعمرو.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦١].

فإن قيل: لم عدى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء وإلى المؤمنين باللام في قوله تعالى: (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)؟

قلنا: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به، فعداه بالباء كما يعدى ضده بها، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به لكونهم من صادقين عنده، فعداه بما يعدى به التسليم والانقياد، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[٤] وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[٥] فمشترك الدلالة لأنه قال في موضع آخر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ﴾ وقال ابن قتيبة في الجواب عن أصل السؤال: إن الباء واللام زائدتان، والمراد بالإيمان التصديق، فمعناه يصدق الله ويصدق المؤمنين.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

فإن قيل: قوله تعالى: (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأنَّ له نار جهنم خالدًا فيها) يدل على تخليد أصحاب الكبائر في النار؛ لأن المراد بالمحادة المخالفة والمعاداة؟

قلنا: قوله تعالى: (ألم يعلموا) خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم، فيكون المراد به المحادة بالكفر والنفاق، وذلك موجب للتخليد في النار.

---

(١) يوسف: ١٧.
(٢) البقرة: ٧٥.
(٣) يونس: ٨٣.
(٤) الشعراء: ١١١.
(٥) طه: ٧١.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) وسور القرآن إنما تنزل على النبي ﷺ لا على المنافقين؟

قلنا: معناه: أن تنزل فيهم، فـ«على» هنا بمعنى: «في» كما في قوله تعالى: (على ملك سليمان) وقولهم: كان ذلك على عهد فلان. الثاني: أن الإنزال هنا بمعنى القراءة؛ فمعناه: أن تقرأ عليهم.

فإن قيل: الحذر في هذه الآية واقع على إنزال السورة، فكيف قال تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

قلنا: قوله تعالى: (مخرج ما تحذرون) أي: مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بإنزال السورة، فهو مناسب لقوله تعالى: (تنبئهم بما في قلوبهم).

الثاني: أن معناه: مظهر ومبرز ما تحذرون من إنزال السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (تنبئهم بما في قلوبهم) وإنباؤهم بما في قلوبهم تحصيل الحاصل لأنهم عالمون به فما فائدته؟

قلنا: معناه: تنبئهم أسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة؛ وتفضحهم ظهور ما اعتقدوا أنه لا يعرفه غيرهم ولا يطلع عليه سواهم، وهذا ليس تحصيل الحاصل.

وفي قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) وقال بعده: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وكلمة «من» أدل على المشابهة والمجانسة من حيث إنها تقتضي الجزئية والبعضية، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى لأنهم أشد تشابهًا وتجانسًا في الصفات والأخلاق؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: (بعضهم من بعض) أي: بعضهم على دين بعض، أي: على

عادتهم وخلقهم بإضمار لفظة «الدين» أو «الخلق» ونحوه؛ لأن «من» تأتي بمعنى «على» ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[١] وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾[٢] أي: يحلفون على وطء نسائهم، وهذا هو المعنى المراد في قوله عليه الصلاة والسلام: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام: «**من غشنا فليس منا**»[٤] والمراد بقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: أنصارهم وأعوانهم في الدين، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين، إلا أنه خص المنافقين بتلك العبارة تكذيبًا لهم في حلفهم السابق في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ وتقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْكُمْ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

فإن قيل: أي فائدة في قوله تعالى: (فاستمتعوا بخلاقهم) مع أن قوله تعالى: (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) بوضع الظاهر موضع المضمر مغن عنه، كما قال تعالى: (وخضتم كالذي خاضوا) من غير تكرار؟

قلنا: فائدته تصدير التشبيه بذم المشبه بهم باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا واشتغالهم بشهواتهم عن النظر في العاقبة فطلب الفلاح في الآخرة، وتهجين حالهم وتقبيح صفتهم ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ في ذم المشبهين بأولئك الأولين، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويظلم ويفسق وأنت تفعل مثل فعله. وأما قوله تعالى: (وخضتم كالذي خاضوا) فإنه لما كان معطوفًا على ما قبله وهو التشبيه المصدر بتلك المقدمة أغنى ذلك عن إعادة تلك المقدمة المذكورة للتقبيح والتهجين.

---

(١) الأنبياء: ٧٧.

(٢) البقرة: ٢٢٦.

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (٣٤٦٩).

(٤) رواه مسلم (٣٤٩).

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩].

فإن قيل: قوله تعالى: (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) حبوط العمل إن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلك إنما يكون في الآخرة، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فأعمال المنافقين في الدنيا ليست باطلة المنفعة؛ لأنهم ينتفعون بها في حقن دمائهم وأموالهم وجريان أحكام المسلمين عليهم؟

قلنا: المراد بالأعمال إن كانت نوعي أعمالهم الدينية والدنيوية، فالحبوط في الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية وهي كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذي كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى ورفع آياته وبيناته ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فلم ينالوا من ذلك ما أملوه وقصدوه من إبطال دين الله تعالى وستر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، والحبوط في الآخرة راجع إلى أعمالهم الدينية وهي عباداتهم وطاعاتهم؛ لأنهم فعلوها نفاقًا ورياء فبطل ثوابها في الآخرة؛ وإن كان المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية فحبوطها في الدنيا هو عدم قبولها؛ لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا، ثم يثيب عليها في الآخرة، والمراد بحبوطها في الدنيا عدم قبولها وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها، كالعبادة والقربة والحسنة ونحو ذلك، وهذا ضد قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1] فدل على أن للطاعات أجرًا معجلاً في الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة.

وهو القبول وحسن الثناء والذكر وإلقاء المحبة في قلوب الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[2] قيل: معناه: يحبهم ويحببهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم ويبغضهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فإن قيل: قوله تعالى: (وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) لم خص الأرض بالنفي

(١) العنكبوت: ٢٧.
(٢) مريم: ٩٦.

مع أن المنافقين ليس لهم ولي ولا نصير من عذاب الله في الأرض ولا في السماء في الدنيا ولا في الآخرة؟

قلنا: إن المنافقين لا يعتقدون الوحدانية ولا يصدقون بالآخرة، وكان اعتقادهم وجود الولي والنصير مقصورًا على الدنيا، فعبر عن الدنيا بالأرض وخصها بالذكر لذلك. الثاني: أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة فكأنه قال: وما لهم في الدنيا والآخرة من ولي ولا نصير.

وفي قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٨٠].

فإن قيل: لم خص السبعين بالذكر في قوله: (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) مع أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول ﷺ ألف مرة بدليل قوله تعالى: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾[(١)] ولأنهم مشركون، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به؟

قلنا: جرت عادة العرب بضرب المثل في الآحاد بالسبعة، وفي العشرات بالسبعين، وفي المئات بتسعمائة استعظامًا لها واستكثارًا، لا أنهم يريدون بذكرها الحصر، فكأنه قال: إن تستغفر لهم أعظم الأعداد وأكثرها فلن يغفر الله لهم يعضده ما ذكره بعد ذلك من بيان الصارف عن المغفرة في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾[(٢)].

فإن قيل: لو كان المراد ما ذكرتم لما خفى ذلك على النبي ﷺ وهو أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، حتى قال لما نزلت هذه الآية: «إن الله تعالى قد رخص لي فسأزيد على السبعين» وفي رواية أخرى: «فسأستغفر لهم أكثر من السبعين لعل الله أن يغفر لهم»؟

قلنا: لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار غاية رحمته ورأفته بمن بعث إليهم، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾[(٣)] الآية وفي إظهار النبي

(١) المنافقون: ٦.
(٢) التوبة: ٨٠.
(٣) التوبة: ١٢٨.

ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمته، وحث لهم على التراحم، وشفقة بعضهم على بعض، وهذا دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ألا ترى إلى قول إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين لا للمحسنين؟

قلنا: معناه: والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا، فهو متعلق بمحذوف لا بالمحسنين؛ لأنهم سدوا بإحسانهم طريق العقاب والذم، فليس عليهم سبيل فيهما. الثاني: أن المحسن من الناس وإن تناهي في إحسانه لا يخلو عن إساءة بينه وبين الله تعالى، أو بينه وبين الناس، لكنه إذا أحسن باجتناب الكبائر غفر الله له صغائر سيئاته ورحمه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[٢] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فإن قيل: قوله تعالى: (فسيرى الله عملكم ورسوله) أي: سيعلم؛ لأن السين للاستقبال، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم، والله تعالى عالم بعملهم حالاً ومآلاً؟

قلنا: معناه: سيعلمه واقعًا موجودًا كما علمه غيبًا؛ لأن الله تعالى يعلم كل شيء على ما هو عليه، فيعلم المنتظر منتظرًا ويعلم الواقع واقعًا، وأما في حق الرسول عليه الصلاة والسلام فهو على ظاهره.

فإن قيل: إن الله تعالى قد وصف العرب بالجهل في أحكام القرآن الكريم لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان معاني الألفاظ؛ لأن القرآن والسنة جاء بلغتهم، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٣].

---

(١) إبراهيم: ٣٦.
(٢) النساء: ٣١.
(٣) محمد: ٣٠.

قلنا: هذه الآية نزلت قبل تلك الآية فلا تناقض لأنه نفى علمهم في زمان ثم أثبته بعد ذلك في زمان آخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فإن قيل: قوله تعالى: (خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا) قد جعل كل واحد منهما مخلوطًا فأين المخلوط به؟

قلنا: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأن معناه: خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد باللبن؛ لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطًا واللبن مخلوطًا به، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطًا بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولهم: بعت شاة ودرهما، يعنون شاة بدرهم.

وفي قول تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والناهون عن المنكر) بالواو وما قبلها من الصفات بغير واو؟

قلنا: لأنها صفة ثامنة، والعرب تدخل الواو بعد السبعة إيذانًا بتمام العدد، فإن السبعة عندهم هي العقد التام كالعشرة عندنا، فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[1] بعد ما ذكر العدد مرتين بغير واو، وقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[2] بالواو لأنها ثمانية، وقال في صفة النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بغير واو لأنها سبعة، وليس قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[3] من هذا القبيل؛ لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى لتناقض الصفتين، وقيل: إنما دخلت الواو على الناهين عن المنكر إعلامًا بأن الأمر بالمعروف ناه عن المنكر في

(١) الكهف: ٢٢.
(٢) الزمر: ٧٣.
(٣) التحريم: ٥.

حال أمره بالمعروف، فهما صفتان متلازمتان بخلاف باقي الصفات المذكورة؛ فإنها ليست متلازمة، ولا ينقض هذا بقوله تعالى: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾[١] لأنهما ليستا صفتين متلازمتين؛ لأن السجود لم يلزم الركوع، أما الركوع فلا يلزم السجود، بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر، والزمخشري لم يتكلم على هذه الواو.

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أي: بأحسن الذي كانوا يعملون بإضمار حرف الجر، مع أنهم يجزون بحسنه أيضًا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٢]؟

قلنا: معناه: بحسن الذي كانوا يعملون، وهو الطاعات كلها، لا بسيئه وهو المعاصي، فالأحسن هنا بمعنى الحسن، وسيأتي في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٣] ما يوضح هذا إن شاء الله تعالى. الثاني: أن معناه ليجزيهم الله أحسن من الذي كانوا يعملون.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

فإن قيل: قوله تعالى: (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة؟

قلنا: قال مجاهد -رحمه الله: معناه فزادتهم علمًا؛ لأن العلم من ثمرات الإيمان فجعل مجازًا عنه.

***

(١) التوبة: ١١٢.
(٢) الزلزلة: ٧.
(٣) الروم: ٢٧.

سورة يونس عليه السلام

وفي قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يفضل الآيات لقوم يعلمون) والله تعالى فصل الآيات للعلماء والجهال أيضًا؟

قلنا: لما كان يقع تفصيل الآيات مخصوصًا بالعلماء وانتفاعهم بالتفضيل أكثر أضاف التفصيل إليهم وخصهم به.

وفي قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها؛ لأن الجنة دار الخلود؟

قلنا: معناه: وآخر دعائهم في كل مجلس دعاء أو ذكر أو تسبيح، فإن أهل الجنة يسبحون ويذكرون للتنعم والتلذذ بالذكر والتسبيح.

فإن قيل: قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته في قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾[1] ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتج في وجود المعصية منه بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية، فلا تقيموا على حدها، فكيف قال النبي ﷺ: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾[2]؟

قلنا: النبي ﷺ قال هذه الحجة بأمر الله تعالى؛ لأن الله ﷻ قال له: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا

(١) الأنعام: ١٤٨.
(٢) يونس: ١٦.

﴿تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾[١]، والعبد إن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها، أما ما ليس كذلك فليس له أن يحتج بمجرد المشيئة، وما أوردتموه كذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) والبغي لا يكون إلا بغير الحق؛ لأن البغي هو التعدي والفساد، من قولهم بغي الجرح: إذا فسد، كذا قاله الأصمعي، فما فائدة التقييد؟

قلنا: قد يكون الفساد بالحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار وهدم دورهم وإحراق زرعهم وقطع أشجارهم، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤].

فإن قيل: كيف شبه الله تعالى الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض فقال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء)؟

قلنا: لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه ولا حيلة كما أن الحياة لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها. الثاني: أن ماء السماء يستوي فيه جميع الخلائق، الوضيع والشريف، والغنى والفقير وغيرهما أيضًا كالمدر والحجر والشوك والثمر، كما أن الحياة كذلك، فكأن تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

وإن قيل: كيف قال تعالى: (ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم) وقال في موضع آخر: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٢].

قلنا: يوم القيامة مواقف ومواطن، ففي موقف لا يكلمهم، وفي موقف لا يكلمهم،

---

(١) يونس: ١٦.

(٢) البقرة: ١٧٤.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[١] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢]. والثاني: المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام، بل كرم توبيخ وتقريع.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١].

فإن قيل: قوله تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض) إلى آخر الآية يدل على أنهم معترفون بأن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبر لجميع المخلوقات، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام؟

قلنا: كانوا في عبادة الأصنام ويتأولون عبادة الله، فطائفة كانت تقول: لا نتأهل لعبادة الله تعالى بغير واسطة لعظمة إجلاله ونقصنا وحقارتنا، فجعلوا الأصنام وسائط كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[٣] وطائفة كانت تقول: نتخذ أصنامًا على هيئة الملائكة ونعبدهم لتشفع لنا الملائكة عند الله، وطائفة كانت تقول: الأصنام قبلة لنا في عبادة الله، كما أن الكعبة قبلة في عبادتكم، وطائفة وهي الأكثر كانت تقول: على كل صنم شيطان موكل به من عند الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه على وفق مراده بأمر الله، ومن قصر في عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله تعالى فكل الطوائف من عبادة الأصنام كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه، ولكن بطرق مختلفة.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق يم يعبده) وهم غير معترفين بوجود الإعادة أصلاً، لا من الله ولا من غيره؟

قلنا: لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها، وهو القدرة على ابتداء الخلق،

---

(١) الرحمن: ٣٩.
(٢) الحجر: ٩٢، ٩٣.
(٣) الزمر: ٣.

والإعادة أهون بالنسبة إلينا، لزمهم الاعتراف بها، فصاروا كأنهم مسلمون بوجودها من حيث ظهور الحجة ووضوحها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) رتب كونه شهيدًا على أفعالهم على رجوعهم إليه في القيامة، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة؟

قلنا: ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء، فكأنه قال: ثم الله يعاقب على ما يفعلون، أو مجاز على ما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾[1] ونظائره في القرآن العزيز كثيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (بياتًا أو نهارًا) ولم يقل ليلاً أو نهارًا، وهو أظهر في المطابقة استعمالاً مع النهار في القرآن العزيز وغيره؟

قلنا: لأن المعهود المألوف في كلام العرب عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد ذكر لفظ البيات سواء قرن به النهار أولاً فلذلك لم يقل ليلاً[2].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ماذا يستعجل منه المجرمون) أي: ماذا يستعجلون منه، وأول الآية للمواجهة؟

قلنا: أراد بذكر المجرمين الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام؛ لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويفزع من مجيئه وإن أبطأ، فضلاً عن أن

---

(١) البقرة: ١٩٧.

(٢) الصواب: سواء أقرن به النهار أم لا كقوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن سواء بعد همزة التسوية يذكر بعدها أم لا أو.

يستعجله.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا) ولم يقل: فبذينك، والمشار إليه اثنان: الفضل والرحمة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة، في قوله تعالى: (عوان بين ذلك).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

فإن قيل: قوله تعالى: (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) تهديد؛ لأن فيه محذوفًا تقديره: وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده: (إن الله لذو فضل على الناس).

قلنا: هو مناسب؛ لأن معناه: إن الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل والوحي والهداية، وتأخر العذاب وفتح باب التوبة، فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن) فأفرد، ثم قال: (ولا تعملون من عمل) فجمع، والخطاب للنبي ﷺ؟

قلنا: قال ابن الأنباري: إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ في الفعلين الأولين، وقال غيره: المراد بالفعل الثالث أيضًا: النبي ﷺ وحده، وإنما جمع تفخيمًا له وتعظيمًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[1] على قول ابن عباس

(١) البقرة: ٧٥.

رضي الله عنهما، وكما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[١] والمراد به النبي ﷺ، كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما واختاره ابن قتيبة والزجاج.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

فإن قيل: كيف قدم الأرض على السماء في قوله تعالى: (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) وقدم السماء على الأرض في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾[٢]؟

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقًا لأنها أشرف، لكنه لما ذكر هنا في صدر الآية شهادته على شئون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم ثم أردفه بقوله: (وما يعزب عن ربك) ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء. الثاني: أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها، فلا يعطي رتبة كالتثنية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (إن العزة لله جميعًا) وقال في موضع آخر: ﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]؟

قلنا: أثبت الاشتراك في نفس العزة التي هي في حق الله تعالى القدرة والغلبة، وفي حق الرسول ﷺ علو كلمته وإظهار دينه، وفي حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم، وقوله تعالى: (إن العزة لله جميعًا) أراد به العزة الكاملة التي يندرج فيها عزة الإلهية والخلق والإماتة والإحياء والبقاء الدائم وما أشبه ذلك فلا تنافي.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ لله مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦].

فإن قيل: إذا كانت السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما وراءهما كل

---

(١) المؤمنون: ٥١.
(٢) سبأ: ٣.
(٣) المنافقون: ٨.

ذلك لله تعالى ملكًا وخلقًا، فما فائدة التخصيص في قوله تعالى: (من في السماوات ومن في الأرض)؟

قلنا: إنما خص العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثقلان، ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيدًا له وهو ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا للشركة معه، فما وراءهم مما لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما أحق أن لا تكون له ندًّا وشريكًا.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

فإن قيل: كيف قال لهم موسى عليه السلام: (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) على طريق الاستفهام، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار أو التحقيق المؤكد بـ«إن» و«اللام» لا على طريق الاستفهام، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1]

قلنا: فيه إضمار تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين، ثم قال: أسحر هذا؟ إنكارًا لما قالوه، فالاستفهام من قول موسى عليه السلام لا مفعول لقولهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

فإن قيل: كيف نَوّع الخطاب في قوله تعالى: (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتًا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) فثنى أولاً ثم جمع ثم أفرد؟

قلنا: خوطب أولاً موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم سيق الخطاب عامًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا لها أو تعظيمًا له عليه السلام.

---

(١) يونس: ٧٦.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قد أجيبت دعوتكما) أضافها إليهما، والدعوة إنما صدرت من موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾[١] إلى آخر الآية؟

قلنا: نقل أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن على دعائه، والتأمين دعاء في المعنى فلهذا أضاف الدعوة إليهما. الثاني: أنه يجوز أن يكون هارون قد دعا أيضًا مع موسى إلا أن الله تعالى خص موسى بالذكر؛ لأنه كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها أو أكثر إخلاصًا فيها.

فإن قيل: لو كان كذلك لقال تعالى دعونا كما بالتثنية؟

قلنا: لما كانت الدعوة مصدرًا اكتفى بذكرها في موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك) وإن إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود، وشك النبي ﷺ في القرآن منتف قطعًا؟

قلنا: الخطاب ليس للنبي ﷺ بل لمن كان شاكًّا في القرآن وفي نبوة محمد ﷺ، فكأنه قال: «**فإن كنت أيها الإنسان في شك**»[٣].

---

(١) يونس: ٨٨.

(٢) البقرة: ٧.

(٣) ويرى الباحث أن الخطاب موجه للنبي × خاصة بدليل استخدام تاء الخطاب وكاف الخطاب، وقد خص بهما، فالحديث موجه إليه، والكتاب نزل على قلبه ولم ينزل على الصحابة، فالخطاب مؤكد بأنه خاص بالنبي × ليثبت به قلبه، ويشرح صدره ويدفعه إلى تبليغ دعوة الله تعالى وهو ثابت على الحق الذي لا شبهة فيه.. والله أعلم.

فإن قيل: قوله تعالى: (مما أنزلنا إليك) يدل على أن الخطاب للنبي ﷺ لا لغيره.

قلنا: لا يدل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾[٢]. الثاني: أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[٣] ويعضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾[٤]. الثالث: أن تكون «إن» بمعنى «ما» تقديره: فما كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل. المعنى: لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك؛ لأنك في شك منه، بل لتزداد بصيرة ويقينًا وطمأنينة. الرابع: أن الخطاب للنبي ﷺ مع انتفاء الشك منه والمراد به إلزام الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى ﷺ: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾[٥] وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لإلزام الحجة على النصارى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فإن قيل: قوله تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا) ما فائدة ذكر «جميعًا» بعد قوله: «كلهم» وهو يفيد الشمول والإحاطة؟

قلنا: «كل» يفيد الشمول والإحاطة، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع، وجميعًا يدل على وجوده منهم في حالة واحدة كما تقول: جاءني القوم جميعًا، أي: مجتمعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٦].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) النساء: ١٧٤.
(٢) التوبة: ٦٤.
(٣) الأحزاب: ١.
(٤) يونس: ١٠٤.
(٥) المائدة: ١١٦.
(٦) الحجر: ٣٠.

فإن قيل: قوله تعالى: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) كيف يصح هذا الأمر مع أنا لا نعلم جميع ما فيهما ولا نراه؟

قلنا: هو عام أريد ما ندركه بالبصر أو بالبصيرة مما فيهما كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات ونحو ذلك مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته، فيستدل به على ما وراءه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

قلنا: إنما عدل عن لفظ المس المذكور في سورة الأنعام إلى لفظ الإرادة؛ لأن الجزاء هنا قوله تعالى: (فلا راد لفضله) والرد إنما يكون فيما لم يقع بعد، والمس إنما يكون فيما وقع فلهذا قال ثم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومعناه: فإن شاء أدام ذلك الخير وإن شاء أزاله فلا يطلب دوامه وزيادته إلا منه.

* * *

سورة هود عليه السلام

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) مع أن التوبة مقدمة على الاستغفار؟

قلنا: المراد استغفروا ربكم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة، كذا قاله مقاتل، وهذا الاستغفار مقدم على هذه التوبة. الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا. الثالث: قال الفراء: ثم هنا بمعنى الواو، وهي لا تفيد ترتيبًا فاندفع السؤال.

فإن قيل: من لم يستغفر ولم يتب فإن الله يمتعه متاعًا حسنًا إلى أجله، أي: يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس، أو يعمره كما قال ابن قتيبة، فما فائدة قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؟

قلنا: قال غيرهما: المتاع الحسن المشروط بالاستغفار والتوبة هو الحياة في الطاعة والقناعة، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فإن قيل: قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض) كيف لم يقل على الأرض مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة فإنها ما يدب على وجه الأرض؟

قلنا: «في» هنا بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾[(٢)]. الثاني: أن لفظة «في» أعم وأشمل؛ لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض وكل دابة في باطن الأرض بخلاف «على».

فإن قيل: كيف خص الدابة بذكر ضمان الرزق، والطير كذلك رزقه على الله تعالى، وهو غير

(١) طه: ٧١. (٢) الطور: ٣٨.

الدابة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[١]؟

قلنا: إنما خص الدابة بالذكر؛ لأن الدواب أكثر من الطيور عددًا، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير كالفيل والحوت، فيكون أحوج إلى الرزق، فلذلك خصه بالذكر.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (إلا على الله رزقها) وعلى للوجوب، والله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضلاً منه وكرمًا.

قلنا: «على» هنا بمعنى «من» كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[٢].

الثاني: أنه ذكره بصيغة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة في حصوله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) والخطاب عام للمؤمنين والكافرين، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال الفريقين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟

قلنا: قوله تعالى: (ليبلوكم) عام أريد به الخاص وهم المؤمنون تشريفًا لهم وتخصيصًا فصح قوله: (أحسن عملاً).

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وضائق به صدرك) ولم يقل: وضيق؟

قلنا: ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت؛ لأن النبي ﷺ كان أفسح الناس صدرًا، ونظيره قولك: زيد سائد وجائد، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجود الثابتين المستقرين قلت: زيد سيد وجواد، كذا قال الزمخشري[٣].

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) المطففين. ٢

(٣) ويرى الباحث أن اسم الفاعل: ضائق مناسب في الاستخدام عن صيغ المبالغة «ضيق» لأن صيغ المبالغة تدل على الدوام والثبوت أما اسم الفاعل فيدل على التغير كقولنا: قائم، جالس، ومقيم فهي تقبل الانتقال من صفة إلى أخرى، وهذا يدل على أن الضيق أمر عارض؛ لأن الرسول × رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

فإن قيل: قال تعالى: **﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾** أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله؛ لأن ما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى.

قلنا: أراد به مثله في البلاغة والفصاحة وإن كان مفترى. وقيل معناه: مفتريات، كما أن القرآن مفترى في زعمكم واعتقادكم فيتماثلان.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُوا﴾**، فأفرد في قوله: **﴿قُلْ﴾**، ثم جمع فقال: **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾**؟

قلنا: الخطاب للنبي ﷺ في الكل، ولكنه جمع في قوله: **﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾** تفخيمًا له وتعظيمًا.

الثاني: أن الخطاب الثاني للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتحدونهم بالقرآن، وقوله تعالى في موضع آخر: **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾**[1] يعضد الوجه الأول.

الثالث: أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين، والضمير في يستجيبوا لمن استطعتم، يعني فإن لم يستجب لكم من تدعونه المظاهرة على معارضته لعجزهم فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله، وهذا وجه لطيف.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾** يدل على بطلان عملهم، فما فائدة قوله بعده: **﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**؟

---

(١) القصص: ٥٠.

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: بطل ثواب ما صنعوا من الطاعات في الدنيا، ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الرياء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

فإن قيل: كيف قال نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بـ«الواو»، وقال هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[1] بغير «الواو»؟

قلنا: لأن الضمير في قولهما: «عَلَيْهِ» لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام في القصتين، ولكن في قصة نوح عليه السلام وقع الفصل بين الضمير وبين ما هو عائد عليه بكلامٍ آخر، فجيء بـ«واو الابتداء»: وفي قصة هود عليه السلام لم يقع بينهما فصل، فلم يحتج إلى «واو» الابتداء، هذا ما وقع لي فيه، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ لا يناسبه المستثنى في الظاهر وهو قوله: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾؛ لأن المرحوم معصوم، فظاهره يقتضي لا معصوم إلا من رحم، أي: لا معصوم من الغرق بالطوفان إلا من رحمه الله بالإنجاء في السفينة؟

قلنا: «عَاصِمَ» هنا بمعنى: معصوم، كقوله تعالى: ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي: مدفوق، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[2] أي: مرضية، وقول العرب: سرٌّ كاتم، أي: مكتوم.

الثاني: أن معناه: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، أي: إلا الراحم وهو الله تعالى، وليس معناه المرحوم، فكأنه قال: لا عاصم إلا الله.

الثالث: أن معناه: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ونجاهم وهو السفينة، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا

---

(١) هود: ٥١.

(٢) الحاقة: ٢١.

﴿وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، وهذا لأن ابن نوح عليه السلام لما جعل الجبل عاصمًا من الماء رد نوح عليه السلام ذلك، ودله على العاصم وهو الله تعالى، أو المكان الذي أمر الله بالالتجاء إليه وهو السفينة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

فإن قيل: كيف صحَّ أمر السماء والأرض بقوله تعالى: **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾** وهما لا يعقلان، والأمر والنهي إنما يكون لمن يعقل ويفهم الخطاب؟

قلنا: الخطاب لهما في الصورة، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما.

الثاني: أن هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب، وأمر الإيجاد لا يشترط فيه العقل والفهم؛ لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى، ومنه قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[٢]، وقوله تعالى: **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾**[٣] كل ذلك أمر إيجاد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: **﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾** بـ«الفاء»، وقال في قصة زكريا -عليه الصلاة والسلام: **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ﴾**[٤] بغير «فاء»؟

قلنا: أراد بالنداء هنا إرادة النداء، فجاء بالفاء الدالة على السببية، فإن إرادة النداء سبب النداء، فكأنه قال: وأراد نوح نداء ربه، فقال: كيت وكيت، وأراد به في قصة زكريا -عليه الصلاة والسلام- حقيقة النداء، فلهذا جاء بغير «فاء»؛ لعدم ما يقتضي السببية.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا

---

(١) هود: ٤١.
(٢) النحل: ٤٠.
(٣) فصلت: ١١.
(٤) مريم: ٣، ٤.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

فإن قيل: هود -عليه الصلاة والسلام- كان رسولاً ولم يظهر معجزة، ولهذا قال له قومه: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فبأي شيء لزمتهم رسالته؟

قلنا: إنما يحتاج إلى معجزة من الرسل من يكون صاحب شريعة لتنقاد أمته لشريعته، فإن في كل شريعة أحكامًا غير معقولة، فيحتاج الرسول الآتي بها إلى معجزة لتشهد بصحة صدقه، فأما الرسول الذي لا تكون له شريعة ولا يأمر إلا بالعقليات، فلا يحتاج إلى معجزة؛ لأن الناس ينقادون إلى ما يأمرهم به لموافقته للعقل، وهود كان كذلك.

الثاني: أنه نُقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر، فإنها كانت سخرت له.

فإن قيل: على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصورًا على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه إلى الجنون بقولهم: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿بِسُوءٍ﴾؟

قلنا: إنما صدر ذلك القول من قاصري العقول أو المعاندين المكابرين كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات.

وفي قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤].

فإن قيل: هلا قال: إني (أشهد الله وأشهدكم) ليتناسب الجملتان.

قلنا: لأن إشهاد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهادٌ صحيحٌ مفيد تأكيد التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة؛ لأنهم ليسوا أهلاً للشهادة، فعدل به عن اللفظ الأول وأتى به على صورة التهكم والتهاون، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه: أشهد إني لأحبك، تهكمًا به واستهانةً له.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ جعل التولي شرطًا والإبلاغ جزاءً، والإبلاغ كان سابقًا على التولي.

قلنا: ليس الإبلاغ جزاء التولي، بل جزاؤه محذوف تقديره: فإن تولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ أو تقصير فيه، ودلَّ على الجزاء المحذوف قوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾.

الثاني: قال مقاتل: تقديره: فإن تولوا فقل لهم: قد أبلغتكم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

فإن قيل: ما فائدة تكرار التنجية في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؟

قلنا: أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود، وهو سموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطعتهم عضوًا عضوًا، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقه قوم هود بالكفر ولا عذاب أغلظ منه ولا أشد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

فإن قيل: «بُعْدًا» معناه عند العرب: الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم.

قلنا: معناه الدلالة على أنهم مستأهلون له وحقيقون به، ونقيضه قول الشاعر:

إِخـــوَتي لا تَبعـــدوا أبـــدًا   وَبـــلى واللهِّ قَـــد بَعـــدوا

أراد بالدعاء لهم بنفي الهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ نهي عن النقص فيهما، والنهي عن النقص أمر بالإيفاء معنى، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾؟

قلنا: صرح أولاً بنهيهم عن النقص الذي كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة في تقبيحه

وتغييرهم إياه، ثم صرَّح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذي هو حسن عقلاً لزيادة الترغيب فيه والحث عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**، والعتو الفساد، فيصير المعنى: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة «البقرة»، وجواب آخر معناه: ولا تعثوا في الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان.

وفي قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

[هود: ٨٦].

فإن قيل: كيف قال: **﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**، فشرط الإيمان في كون البقية خيرًا لهم، وهي خير مطلقًا لأن المراد ببقية الله ما يبقى لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن وذلك خير لهم، وإن كانوا كفارًا؛ لأنهم يسلمون معه من عقاب البخس والتطفيف؟

قلنا: إنما شرط الإيمان في خيرية البقية؛ لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر، وهو محصول الثواب مع النجاة من العقاب، ومع فقد الإيمان أخفى لانغماس صاحبها في عذاب الكفر الذي هو أشد العذاب.

الثاني: أن المراد: إن كنتم صادقين فيما أقول لكم وأنصح.

وفي قوله تعالى: **﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُم بِبَعِيدٍ﴾** [هود: ٨٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُم بِبَعِيدٍ﴾**، ولم يقل: ببعيدين، والقوم اسم لجماعة الرجال، وما جاء في القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة، قال الله

تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾[٢].

قلنا: فيه إضمار تقديره: وما هلاك قوم لوط أو مكان قوم لوط، ومكان قوم لوط كان قريبًا منهم، وإهلاكهم أيضًا كان قريبًا من زمانهم.

الثاني: أن فعيلا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، قال الجوهري: يقال ما أنتم منا ببعيد، وقال الله تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٣]، وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

فإن قيل: قولهم: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ كلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فيكف صحَّ قوله: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ﴾؟

قلنا: تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله، فحين عزَّ رهطه عليهم دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[٦].

فإن قيل: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان المطابق والموافق في ظاهر الفهم أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم، ومن هو صادق إليه.

قلنا: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال: ومن هو كاذب، يعني في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

---

(١) نوح: ١.
(٢) الحجرات: ١١.
(٣) التحريم: ٤.
(٤) ق: ١٧.
(٥) النساء: ٨٠.
(٦) الفتح: ١٠.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، والقرى لا تكون ظالمة؛ لأن الظلم من صفات الحيوان دون الجماد؟

قلنا: هو من الإسناد المجازي، والمراد به أهلها، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[١]، لكن لما أمن اللبس أسند الظلم إلى القرية لفظًا كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥].

فإن قيل: كيف التوفيق بين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[٣]، وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ ۞ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٤]، فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفي الإذن، وتناقض الآيتين جميعًا بنفي النطق؟

قلنا: أما التوفيق بين الآيتين الأوليين فظاهر؛ لأن معناه تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الأولى بنفي الإذن، إن قلنا: إن الاستثناء عن النفي ليس بإثبات لأن الآية الأولى لا تقتضي وجود الإذن حينئذٍ، بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن، فأما إن قلنا: إن الاستثناء من النفي إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى، ولا تناقض الآيتين بنفي النطق؛ لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن، ففي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ﴾[٥] نفى النطق عنهم يوم القيامة، فيقتضي انتفاءه في جميع أجزاء ذلك الزمان عملاً بعموم النفي، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا: لا وجود لزيد في الدار، فاندفع الجواب

(١) النساء: ٧٥.
(٢) يوسف: ٨٢.
(٣) النحل: ١١١.
(٤) المرسلات: ٣٦.
(٥) المرسلات: ٣٥.

باختلاف المواقف والمواطن، فيكون الجواب أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، وكلمة «مِنْ» للتبعيض، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقي أو سعيد، فما معنى التبعيض؟

قلنا: التبعيض هنا على حقيقته؛ لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام: قسم شقي، وقسم سعيد وهم أهل النار والجنة كما ذكر في هذه الآية مفصلاً، وقسم لا شقي ولا سعيد وهم أهل الأعراف.

الثاني: أن معنى الكلام: فمنهم شقي ومنهم سعيد، وهذا يقتضي أن يكون الشقي بعض الناس والسعيد بعض الناس، والأمر كذلك، ولا يقتضي أن يكون الشقي والسعيد كلاهما بعض الناس بل كل واحد منهما بعض، وكلاهما كل كما تقول: من الحيوان إنسان، ومن الحيوان غير إنسان، وكل الحيوان إمام إنسان أو غير إنسان.

وفي قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾، وأراد به بيان دوام الخلود، مع أن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيهما خلودًا لا نهاية له، والسموات والأرض ودوامهما منقطع؛ لأنهما يوم القيامة ينهدمان، قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[(٣)]، ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السموات والأرض؟

قلنا: للعرب في معنى الأبد ألفاظ تعبر بها عن إرادة الدوام دون التأقيت منها هذا، يقولون: لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السماء والأرض، وما أطمت الإبل، ويريدون بذلك لا أفعله أبدًا مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أو لا نهاية له.

---

(١) الفجر: ٢١.
(٢) الانفطار: ١
(٣) الأنبياء: ١٠٤.

الثاني: أنه خاطبهم على معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير.

الثالث: أنه أراد به كون الفريقين في قبورهم إما منعمين وإما معذبين، كما جاء في الحديث أن «**القبر إما يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»، ومن كان في روضة من رياض الجنة فهو في الجنة، ومن كان في حفرة من حفر النار فهو في النار، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة.

الرابع: أن المراد بها سموات الآخرة وأرضيها، قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾[1]، وتلك دائمة لا تزول ولا تفنى، ولأنه لا بدَّ لأهل الجنة مما يقلهم ويظلهم، وإما سماء يخلقها الله تعالى، أو العرش، كما جاء في الأخبار أن أهل الجنة تحت ظل العرش، وكل ما أظلك فهو سماء، وجاء في الأخبار أيضًا في صفة الجنة أن ترابها من زعفران، فدلَّ أن لها أرضًا، والمراد تلك السموات وتلك الأرض.

فإن قيل: إذا كان المراد بهذا التأنيث دوام الخلود دوامًا لا آخر له، فكيف يصح الاستثناء في قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾؟

قلنا: قال الفراء: «**إِلاَّ**» هنا بمعنى «غير» و«سوى»، فمعناه: خالدين فيها مادامت السموات والأرض سوى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة، فكأنه قال: خالدين فيها قدر مدة الدنيا غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية، وهذا الوجه إنما يصح؛ إذ كان المراد سموات الدنيا وأرضها.

قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام قولك: لأسكننك في هذه الدار حولاً إلا ما شئت، يريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول.

الثاني: أنه استثناء لا يفعله كما تقول: لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزمك على هجرانه أبدًا وهو معنى قول ابن عباس -رضي الله عنهما: ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾، وقد شاء أن يخلدوا فيها.

قال الزجاج: وفائدة هذا الاستثناء إعلامنا أنه لو شاء ألا يخلدهم لما خلدهم، ولكنه ما شاء إلا خلودهم.

---

(١) إبراهيم: ٤٨.

الثالث: أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب، فإن الأشقياء والسعداء في ذلك الزمان كله ليسوا في النار ولا في الجنة.

الرابع: أن «ما» بمعنى «من» والمستثنى من يدخل النار من الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط.

الخامس: أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء؛ لأنهم لم يدخلوا النار؛ لأن مصيرهم إلى الخلود في الجنة.

والسادس: أنه استثناء من الخلود من عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، الأشقياء لا يخلدون في عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب سوى النار وهو سخط الله عليهم فإنه أشد، وكذلك السعداء لهم سوى نعيم الجنة ما هو أجل منها، وهو الزيادة التي وعدهم الله تعالى إياها بقوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾[1].

ورضوان الله كما قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾[3]، فهو المراد بالاستثناء، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعد ذكر الاستثناء: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾[4]، وقوله تعالى بعد ذكر السعداء: ﴿**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾[5] يعني أنه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب، ويعطي أهل الجنة أنواع العطاء الذي لا انقطاع له، فاختلاف المقطعين يؤكد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا، فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه بعضًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ**﴾ [هود: ١٠٩].

---

(١) يونس: ٢٦.
(٢) التوبة: ٧٢.
(٣) السجدة: ١٧.
(٤) هود: ١٠٧.
(٥) هود: ١٠٨.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافيًا، أي: تامًّا، نقله الجوهري وغيره، والتام لا يكون منقوصًا؟

قلنا: هو من باب التأكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إشارة إلى ماذا؟

قلنا: هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حالي الاختلاف والرحمة، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة، وقد فسَّره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقال: خلقهم فريقين: فريقًا رحمهم فلم يختلفوا، وفريقًا لم يرحمهم فاختلفوا.

وقيل: هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو الترحم، وعلى هذا يكون الضمير في خلقهم للذين رحمهم فلم يختلفوا.

وقيل: هو إشارة إلى الاختلاف والضمير في خلقهم للمختلفين، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والصيرورة لا لام كي وهي التي تسمى لام الغرض والمقصود؛ لأن الخلق للاختلاف في الدين لا يليق بالحكمة، ونظير هذه اللام قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تراب[1]

وقيل: إنها لام التمكين والاقتدار كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾[3]، والتمكن والاقتدار حاصل وإن لم يسكن بعض الناس في الليل ولم يركب بعض هذه الدواب، ومعنى التمكين والاقتدار هنا أنه ﷻ أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ومكنهم منه.

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص(١١).
(٢) يونس: ٦٧.
(٣) النحل: ٨.

وقيل: اللام هنا بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؟

قلنا: معناه وكل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل هو ما نثبت به فؤادك فـ«ما» في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، فلا يقتضي اللفظ قص أنباء جميع الأنبياء، فلا تناقض بين الآيتين.

الثاني: أن المراد بالكل هنا البعض كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، وقول لبيد الشاعر:

أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ وَكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق، كالنبي -عليه الصلاة والسلام- والإيمان والجنة وغير ذلك، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل، ولبيد صادق في هذا البيت؛ لقوله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ» إلى آخره.

فإن قيل: ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ مع أن الحق جاء في كل سور القرآن؟

قلنا: قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك زيادة تشريفها وتفضيلها.

مع مشاركة غيرها إياها في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله﴾[٣]، وقوله

(١) الصافات: ١٠٣.
(٢) الإسراء: ١٠٧.
(٣) الجن: ١٨.

تعالى: ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[١] بعد قوله: ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[٢] بعد قوله: ﴿الصَّلَوَاتِ﴾ ووجه المشابهة بينهما أنه حمل قوله تعالى: ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ على التشريف والتفضيل عند تعذر حمله على تعليق العداوة به لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وكذا في المثال الأخير تعذر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا، وهنا تعذر حمله على حقيقته وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق في هذه السورة وهو منتفٍ، أو حمل الحق على معهود سابق وهو منتفٍ، وحمله على بعض الحق يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور، وأنه لا يحسن كما لو قال: وجاءك في هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز، فجعل مجازًا عن التفضيل والتشريف.

وقيل: الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة، والجمهور على القول الأول، ولا يقال: إنما خصت هذه السورة بذلك؛ لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٣]، والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين لأنا نقول: الأمر بالاستقامة جاء أيضًا في سورة (حمعسق) قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٤]، ولا يصلح هذا علة للتخصيص، والله أعلم.

***

(١) البقرة: ٩٨.
(٢) البقرة: ٢٣٨.
(٣) هود: ١١٢.
(٤) الشورى: ١٥.

سورة يوسف

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، ولم يقل: ثلاثة عشر كوكبًا وهو أوجز وأخصر، والذي رآه كان أحد عشر كوكبًا غير الشمس والقمر؟

قلنا: قصد عطفهما على الكواكب تخصيصًا لهما بالذكر وتفضيلاً لهما على سائر الكواكب لما لهما من المزية والرتبة على الكلِّ، ونظيره تأخير جبريل وميكائيل عن الملائكة -عليهم السلام- ثم عطفهما عليهم إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة وكذا قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[1] إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات.

فإن قيل: ما فائدة تكرار رأيت؟

قلنا: قال الزمخشري: ليس ذلك تكرارًا، بل هو كلام مستأنف وضع جوابًا لسؤال مقدر من يعقوب عليه السلام، كأنه قال له بعد قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال مجيبًا له: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وقال الزجاج: إنما كرر الفعل تأكيدًا لما طال الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2]، ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[3]، وقال غيره: إنما كرَّره تفخيمًا للرؤية وتعظيمًا لها.

فإن قيل: كيف أجريت مجرى العقلاء في قوله: «رَأَيْتُهُمْ»، وفي قوله: «سَاجِدِينَ»، وأصله: (رأيتها ساجدة)؟

---

(١) البقرة: ٢٣٨.
(٢) الروم: ٧.
(٣) يوسف: ٣٧.

قلنا: لما وصفها بما هو من صفات مَنْ يعقل وهو السجود أجرى عليها حكمه كأنها عاقلة، وهذا شائع في كلامهم أن يلابس الشيءُ الشيءَ من بعض الوجوه فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة المقارنة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾، وقوله تعالى في وصف السماء والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٢].

فإن قيل: كيف قال: (نرتع ونلعب) وكانوا عاقلين بالغين وأنبياء أيضًا في قول البعض، وكيف رضي يعقوب عليه السلام لهم بذلك؟

قلنا: على قراءة الياء لا إشكال؛ لأن يوسف عليه السلام كان يومئذٍ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ليعودوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو وذلك جائز بالشرع، ويعضد هذا قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، وإنما سموه لعبًا؛ لأنه في صورة اللعب.

ويرد على أصل السؤال أن يقال: كيف يتورعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد وهو إلقاء أخيهم في الجب على قصد القتل.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

فإن قيل: كيف اعتذر إليهم يعقوب عليه السلام بعذرين: أحدهما: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة، والثاني: خوفه عليه من الذئب، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر؟

قلنا: حبه إياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقته هو الذي كان يغيظهم ويؤلمهم فأضربوا عنه صفحًا ولم يجيبوا عنه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

---

(١) فصلت: ١١.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وهو يومئذٍ لم يكن بالغًا، والوحي إنما يكون بعد الأربعين؟

قلنا: المراد به وحي الإلهام لا وحي الرسالة الذي هو مخصوص بما بعد الأربعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[3]؟

قلنا: المراد ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلاف مقداره، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو الستين، وكان إيتاء كل واحد منهما الحكم والعلم في ذلك الزمان فأخبر عنه كما وقع.

فإن قيل: كيف وحد الباب في قوله: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ بعد جمعه في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾؟

قلنا: لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق جميع أبواب الدار سواء كانت كلها في جدار الدار أو لا، وأما هربه منها إلى الباب فلا يكون إلا إلى باب واحد إن كانت كلها في جدار الدار، ولأن خروجه في وقت هربه لا يتصور إلا من باب واحد منها، وإن كان بعض الأبواب داخل بعض، فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه، ولأن الخروج من الباب الأوسط والباب الأقصى موقوف على الخروج من الباب الأدنى، فلذلك وحد الباب.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

---

(١) القصص: ٧.
(٢) النحل: ٦٨.
(٣) القصص: ١٤.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، ولم يكن قوله شهادة؟

قلنا: لما أدى معنى الشهادة في ثبوت قول يوسف عليه السلام وبطلان قولها سمى شهادة، فالمراد بقوله شهد: أعلم وبيَّن وحكم.

فإن قيل: ﴿قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ يدل على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته وجذبت قميصه من خلفه فقدته، وأما قده من قُبُل فكيف يدل على أنها صادقة؟

قلنا: يدل من وجهين:

أحدهما: أنه إذا كان طالبها وهي تدفعه من نفسها بيدها أو برجلها، فإنها تقد قميصه من قُبُل بالدفع.

الثاني: أنه يسرع خلفها وهي هاربة منه فيعثر في مقادم قميصه فيشقه، ويرد على الوجه الثاني أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذي هو نتيجة الإسراع؛ لأنه يحتمل أن يكون إسراعًا في الهرب منه وهي خلفه فيعثر فينقد قميصه من قُبُل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وإنما يقال: خرجت إلى السوق وطرقت عليه الباب فخرج إليَّ؟

قلنا: إذا كان الخروج بقهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنما يُعدى بـ(على)، ومنه قولهم: خرج علينا في السفر قُطَّاع الطريق، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لله مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

فإن قيل: كيف شبهن يوسف عليه السلام بالملك، فقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وهن ما رأين الملائكة قط؟

قلنا: إن كن ما رأين الملائكة فقد سمعن وصفها.

الثاني: أن الله تعالى قد ركز في الطباع حسن الملائكة كما ركز فيها قبح الشيطان،

---

(١) القصص: ٧٩.

(٢) مريم: ١١.

ولذلك يشبه كل مُتَنَاهٍ في الحسن بالمَلَك، وكل مُتَنَاهٍ في القبح بالشيطان.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

فإن قيل: كيف قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، وترك الشيء إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه، يقال: ترك فلان شرب الخمر وأكل الربا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه، ويوسف عليه السلام لم يكن على ملة الكفار قط؟

قلنا: الترك نوعان: ترك بعد الملابسة ويسمَّى «ترك انتقال»، وترك قبل الملابسة ويسمَّى «ترك إعراض»؛ كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[1]، وموسى عليه السلام ما لابس عبادة فرعون ولا عبادة آلهته في وقت من الأوقات وما نحن فيه من النوع الثاني، وسيأتي نظير هذا السؤال في سورة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، فسر الأمر بالنهي أو بما جزؤه النهي وهما ضدان؟

قلنا: فيه إضمار أمر آخر تقديره: أمر أمرًا اقتضى ألا تعبدوا إلا إياه وهو قوله تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾، فإنه باعتبار تقديم المفعول في معنى الحصر كما قال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3].

الثاني: أن فيه إضمار نهي تقديره: أمر ونهى، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾.

---

(١) الأعراف: ١٢٧.
(٢) الأعراف: ٨٨.
(٣) الفاتحة: ٤.

الثالث: أن قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ وإن كان مضادًا للأمر من حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى، فلم قلتم إن تفسير الشيء بما يضاده صورة ويوافقه معنى غير جائز بيان موافقته معنى من وجهين:

أحدهما: أن النهي عن الشيء أمر بضده، وعبادة غير الله ضد عبادة الله.

الثاني: أن معنى مجموع قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ اعبدوه وحده فيكون تفسيرًا للأمر المطلق بفرد من أفراده وأنه جائز.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فإن قيل: الأنبياء -عليهم السلام- أعظم الناس زهدًا في الدنيا ورغبة في الآخرة، فكيف قال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ طلب أن يكون معتمدًا على الخزائن متوليًا لها وهو من أكبر مناصب الدنيا؟

قلنا: إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه مما يبعث له الأنبياء، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى وسعيًا لمنافع العبادة ومصالحهم لهم لا لحب المُلْك والدنيا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ يعني لو كنت أعلم أي وقت يكون القحط لادخرت لزمن القحط طعامًا كثيرًا، لا للحرص لكن لأتمكن من إعانة الضعفاء الفقراء وقت الضرورة والمضايقة، ويحتمل أن يكون علم تعينه بذلك العمل، فكان طلبه واجبًا عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

فإن قيل: كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يأمر المؤذن أن يقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه، وتكذيب للبريء واتهام من لم يسرق بأنه سرق؟

قلنا: قوله ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ تورية عمَّا جرى منهم مجرى السرقة وتصور بصورتها من فعلهم بيوسف ما فعلوه أولاً.

الثاني: أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام، كذا قاله بعض المفسرين.

الثالث: أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية؛ كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾[1]، وقول إبراهيم عليه السلام في حق زوجه: (هي أختي) لتسلم من يد الكافر، وما أشبه ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

فإن قيل: كيف تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله: ﴿يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾، والرزء الحادث أشد على النفس وأعظم أثرًا؟

قلنا: إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان في العظم ولم يتساويا هنا، بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقد أخيه، فإنما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده مازال غضًّا طريًّا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، والحزن لا يحدث بياض العين، لا طبًّا ولا عرفًا؟

قلنا: قال ابن عباس: أي من البكاء؛ لأن الحزن سبب البكاء، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبب، وكثرة البكاء قد تحدث بياضًا في العين يغشى السواد، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام، وقيل: إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فإن قيل: كيف قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ مع أن من المؤمنين من ييأس من روح الله، أي: من فرجه وتنفيسه أو من رحمته على

(١) ص: ٤٤.

اختلاف القولين، إما لشدة مصيبته أو لكثرة ذنوبه، كما جاء في الحديث في قصة الذي أمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده في البر والبحر ففعلوا به ذلك، ثم إنه يئس من رحمة الله تعالى وضم إلى يأسه ذنبًا آخر وهو اعتقاده أنه إذا أحرق وذري رماده لا يقدر الله على إحيائه وتعذيبه ومع هذا كله يغفر له، فدل على أنه لم يمت كافرًا؟

قلنا: إنما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملاً بظاهر الآية، وكل مؤمن يتحقق منه اليأس من روح الله فهو كافر في الحال حتى يعود إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله، وأما الرجل المغفور له في الحديث فلا نسلم أنه لم يكفر، ثم إن الله تعالى لما أحياه في الدنيا عاد إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله تعالى فلذلك غفر له، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موتته الأولى، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التي أوصى بها أهله، فمات مسلمًا فلذلك غفر له.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

فإن قيل: في قوله تعالى: **﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾** كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟

قلنا: لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا.

وقيل: كان انحناء كالركوع ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض، إلا أن قوله تعالى: **﴿وَخَرُّوا﴾** يأبى ذلك؛ لأن الخرور عبارة عن السقوط، ولا يرد عليه قوله تعالى: **﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾**؛ لأنهم قالوا: أراد به ساجدًا فعبر عن السجود بالركوع كما عبر عن الصلاة في قوله تعالى: **﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾**[1] أي: صلوا مع المصلين. وقيل: له، أي: لأجله، فاللام للسببية لا لتعددية السجود إلى يوسف عليه السلام، فالمعنى: وخروا لأجل يوسف سجدًا لله تعالى شكرًا على جمع شملهم به، وقيل: الضمير في «له» يعود إلى الله تعالى، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى: **﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾**[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن

(١) البقرة: ٤٣.
(٢) يوسف: ١٠٠.

بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فإن قيل: كيف ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى عليه في إخراجه من السجن فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، ولم يذكر نعمته عليه في إخراجه من الجب، وهو أعظم نعمة؛ لأن وقوعه في الجب كان أعظم خطرًا؟

قلنا: إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه:

أحدها: أن محنة السجن ومصيبته كانت أعظم لطول مدتها، فإنه لبث فيه بضع سنين وما لبث في الجب إلا مدة يسيرة.

الثاني: أنه إنما لم يذكر الجب كيلا يكون في ذكره توبيخ وتقريع لإخوته عند قوله لهم: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

الثالث: أن خروجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه فلذلك ذكره، وخروجه من الجب كان مقدمة الذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره.

الرابع: أن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين، بخلاف مصيبة الجب؛ فإنه كان مؤنسه فيه جبريل وغيره من الملائكة -عليهم السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فإن قيل: كيف قال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، وهو يعلم أن كلَّ نبي لا يموت إلا مسلمًا؟

قلنا: يجوز أن يكون دعا بذلك في حالة غلبة الخوف عليه غلبة أذهلته عن ذلك العلم في تلك الساعة.

الثاني: أنه دعا بذلك مع علمه إظهارًا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليمًا للأمة وطلبًا للثواب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فإن قلنا: كيف يجتمع الإيمان والشرك وهما ضدان حتى قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؟

قلنا: معناه: وما يؤمن أكثرهم بأن الله تعالى خالقه ورازقه وخالق السموات والأرض قولاً إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً.

الثاني: أن المراد بها المنافقون يؤمنون بألسنتهم قولاً ويشركون بقلوبهم اعتقادًا.

الثالث: أن المراد بها تلبية العرب، كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، فكانوا يؤمنون بأول تلبيتهم بنفي الشرك ويشركون بآخرها بإثباته.

فإن قيل: هذه التلبية توحيد كلها ولا شرك فيها؛ لأن معنى قولهم: إلا شريكًا هو لك: إلا شريكًا هو مملوك لك موصوفًا بأنك تملكه وتملك ما ملك، واللام هنا للملك لا لعلاقة الشركة، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقيًّا ويحتمل أن يكون مجازيًّا، بيان الأول أنا إن قلنا: إن اللام حقيقة في المعنى العام في مواردها وهو الاختصاص يكون قولهم: «لا شريك لك» عامًّا في نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما، فيدخل في النفي من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهما ثم يقع عليه الاستثناء فيكون استثناءً حقيقيًّا.

وإن قلنا: إنها مشتركة بين المعاني الثلاثة الموجودة في موارد استعمالها وهي الملك والاستحقاق، ويقال: الاختصاص والعلية، فقولهم: «لا شريك لك» يكون عامًّا أيضًا عند مَنْ يجوز حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة، فيكون الاستثناء أيضًا حقيقيًّا كما مرَّ، وأما على قول مَنْ لا يجوز ذلك يكون النفي واردًا على أحد مفهوماته وهو علاقة الشركة، فيكون الاستثناء بعده مجازيًّا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوع من أنواع البلاغة مذكور في علم البيان، وشاهده قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلولٌ من قراع الكتائب[1]

معناه: إن كان هذا عيبًا ففيهم عيب، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب، فكذا

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص(٢٥).

هنا معناه: إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكًا فلك شريك وهو لا يصلح شريكًا لك فلا يكون لك شريك؛ لأن كل ما يدعي أنه شريك لك فهو مملوك لك، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾[1] الآية.

قلنا: على الوجه الأول: إنه ليس بصحيح؛ لأنه لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد نقي الشريك من غير استثناء؛ لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما وهو كفر، واللازم منتفٍ؛ لأنه إيمان محض بلا خلاف.

فإن قيل: إنما لم يكن كفرًا مع عمومه؛ لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك لا نفي كل شريك ضاف إليه بجهة ما، فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء.

والجواب عن أصل السؤال: أنه سؤال حسن محقق، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين، فإن صحَّ النقل أن النبي -عليه الصلاة والسلام- نهى عنها، فإنما نهى عنها؛ لأنها توهم إثبات الشريك لمقتضى الاستثناء عند قاصري النظر، وهم عوام الناس، فلهذه المفسدة نهي عنها.

** •

(١) الروم: ٢٨.

سورة الرعد

وفي قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، ولم يقل: ومن هو سارب بالنهار، ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحدًا هو مستخف وسارب، أي: ظاهر، وليتناسب لفظ الجملة الأولى والثانية، فإنه قال في الجملة الأولى: ﴿مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ﴾ معطوف على «مَنْ» لا على (مستخفٍ)، فيتناول معنى الاستواء اثنين.

الثاني: أنه وإن كان معطوفًا على (مستخفٍ) إلا أن «مَنْ» هنا في معنى التثنية؛ كقوله:

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذُئْبُ يَصْطَحِبَانِ[1]

فكأنه قال: سواء منكم اثنان مستخفٍ بالليل سارب بالنهار.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ أي: في ضياع وبطلان، والكفار يدعون الله تعالى في وقت الشدائد والأهوال ومشارفتهم الغرق في البحر، فيستجيب لهم؟ قلنا: المراد: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، ويعضده قوله تعالى قبله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾، أي: يعبدون.

فإن قيل: كيف طابق قولهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؟ قلنا: هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم؛ لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوا آياته ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم

(١) ديوان الفرزدق.

تنزل عليه قط كان موضعًا يتعجب منه، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

فإن قيل: كيف المطابقة بين قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ﴾؟

قلنا: وفيه محذوف تقديره: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر، ويعد لكل جزاء كمن ليس كذلك وهو الصنم، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ﴾ أو تقديره، أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء، أو التقدير: أفمن كان بهذه الصفة يغفل عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم وجعلوا لله شركاء.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦]. فإن قيل: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ بما قبله وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾؟

قلنا: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليَّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده، كذا أجاب به الزمخشري، وفيه نظرٌ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أثبت لهم مكرًا ثم نفاه عنهم بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؟

قلنا: معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ولا يصير إلا بإرادته، فبهذه الجهة صحت إضافة مكرهم إليه.

الثاني: أنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون فيعكس مكرهم عليهم، فإثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق.

سورة إبراهيم

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ هذا في حق غير النبي -عليه الصلاة والسلام- من الرسل مناسب؛ لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة بل إلى قومه فقط، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم حجة بأنا لم نفهم رسالتك، فأما النبي -عليه الصلاة والسلام- فإنه بعث إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[(١)]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[(٢)]، فإرساله بلسان قومه أن كان لقطع حجة العرب، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية، وإن لم يكن لغير العرب حجة أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة.

قلنا: نزوله عن النبي -عليه الصلاة والسلام- بلسان واحد كافٍ؛ لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن، ويكفي التطويل كما جرى في القرآن العزيز.

الثاني: أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف.

الثالث: أنه لو نزل بألسنة كل الناس وكان معجزًا في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمرًا قريبًا من القسر والإلجاء، وبعثه الرسل لم تبن على القسر والإلجاء بل على التمكين من الاختيار؛ فلما كان نزوله بلسان واحد كافيًا كان أولى الألسنة قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وفي سورة «الأعراف»:

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) سبأ: ٢٨.

﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بغير «واو» فيهما، وقال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بـ«الواو» والقصة واحدة؟

قلنا: حيث حذف «الواو» وجعل التذبيح والتقتيل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب؛ لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة، فعلى هذا يكون إثبات «الواو» أبلغ.

وفي قوله تعالى: ﴿يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فإن قيل: ما معنى التبعيض في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؟

قلنا: ما جاء هذا إلا في خطاب الكافرين؛ كقوله تعالى في سورة «نوح» عليه السلام: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى في سورة «الأحقاف»: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة «الصف»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[3]، وقال تعالى في آخر سورة «الأحزاب»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[4]، وكذا باقي الآيات في خطاب الفريقين إذا تتبعتها، وما ذلك إلا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوي بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبتهما، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم، والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه في سورة «نوح» عليه السلام وفي سورة «الأحقاف» وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقًا، وقيل: معنى التبعيض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها، وقيل: «من» زائدة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

فإن قيل: كيف كرَّر تعالى الأمر بالتوكل وكيف قال أولاً: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

---

(١) نوح: ٤.
(٢) الأحقاف: ٣١.
(٣) الصف: ١٢.
(٤) الأحزاب: ٧١.

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال ثانيًا: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾؟

قلنا: الأمر الأول لاستحداث التوكل، والثاني لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم فلهذا كرره، وقال أولاً: «الْمُؤْمِنُونَ» وثانيًا: «الْمُتَوَكِّلُونَ».

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

فإن قيل: كيف قالوا لرسلهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، والرسل لم يكونوا على ملة الكفار قط، والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان؟

قلنا: العود في كلام العرب يستعمل كثيرًا بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمني، وعاد لفلان مال وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[1].

الثاني: أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناءً على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولاً على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها.

الثالث: أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ونظير هذا السؤال ما سبق في سورة «الأعراف» من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وفي سورة «يوسف» عليه السلام من قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ...﴾[2] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾؟

قلنا: لما كان قول الضعفاء توبيخًا وتقريعًا وعتابًا للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم، أحالوا الذنب على الله تعالى في ضلالهم وإضلالهم، كما قالوا: ﴿لَوْ

(١) يس: ٣٩.
(٢) يوسف: ٣٧.

﴿شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾[١]، و﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾[٢] يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، كما حكى الله تعالى عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ...﴾[٣] الآية.

وقيل: معنى جوابهم: لو هدانا الله في الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة في الدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فإن قيل: كيف اتصل وارتبط قولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ بما قبله؟

قلنا: اتصاله به من حيث إن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعًا مما هم فيه وقلقًا من ألم العذاب، فقال لهم رؤساؤهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين عليها في الدنيا، كأنهم قالوا للضعفاء: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة في الصبر، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ عبَّر عنه بلفظ الماضي، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد، وإنما هو مترقب منتظر بقوله: يوم القيامة؟

قلنا: يجوز وضع المضارع موضع الماضي، ووضع الماضي موضع المضارع إذا أمن اللبس، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[٤]، أي: ما تلت، وقال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ﴾[٥]، وقال الحطيئة الشاعر:

---

(١) الأنعام: ١٤٨.
(٢) النحل: ٣٥.
(٣) المجادلة: ١٨.
(٤) البقرة: ١٠٢.
(٥) البقرة: ٩١.

شَـــهِدَ الحطَيْئَـــةُ يَـــوْمَ يَلَقَـــى ربَـــهُ أَنَّ الوليـــــدَ أَحَـــــقُّ بالعـــــذر[1]

فقولـه: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ نفي اللبس، كذا قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾، وقول الحطيئة: يوم يلقى ربه، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾[2]؛ لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾، وقد رأينا كثيرًا من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأتقياء؟

قلنا: معناه: أنه لا يهديهم ماداموا مصرين على الكفر والظلم معرضين عن النظر والاستدلال.

الثاني: أن المراد منه الظالم الذي سبق له القضاء في الأزل أنه يموت على الظلم، فالله تعالى يثبته على الضلالة لخذلانه، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد.

الثالث: أن معناه: أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا للهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾، والضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد وهي الأصنام، وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[3]؟

قلنا: قد شرحنا ذلك في سورة «يونس» عليه السلام؛ إذ قلنا: هذه لام العاقبة والصيرورة لا لام الغرض، والمقصود كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقول الشاعر:

لـــدوا للمـــوت وابنـــوا للخـــراب[4]

---

(١) ديوان الحطيئة في قصيدة مطلعها:

شـــهد الحطيئـــة يـــوم يلقـــى ربـــه أن الوليــــد أحـــــق بالعُـــــذر

(٢) إبراهيم: ٢٢.

(٣) الزمر: ٣.

(٤) ديوان أبي العتاهية.

قول الآخر:

فللمَـوتِ تَغـدو الوالِـداتُ سـخَالها[١] كـما لِخَـرَابِ الـدُّور تُبنَـى المَسَـاكِنُ[٢]

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال أو الإضلال صار كأنهم اتخذوها لذلك، وكذا الالتقاط والولادة والبناء، ونظائره كثيرة في القرآن العزيز وفي كلام العرب.

فإن قيل: كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خِلال؟

قلنا: معناه: قل لهم يقدمون من الصلوات والصدقة متجرًا يجدون ربحه يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعاوضات والصدقات التي يجلبونها بالهدايا والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية، فجاءت المطابقة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾** أي: لا صداقة، وفي يوم القيامة خلال؛ لقوله تعالى: **﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾**[٣]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**المرء مع مَن أحب**»؟

قلنا: لا خلال فيه لمن لم يقم الصلاة ولم يؤد الزكاة، فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء، وبينهم الخلال يوم القيامة لما تلونا من الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

فإن قيل: كيف قال: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾**، والمسخر للإنسان هو الذي يكون في طاعته يصرفه كيف شاء في أمره ونهيه

---

(١) سخالها: السخل: ولد الشاة ذكرًا كان أم أنثى.

(٢) ديوان سابق بن عبد الله البربري، وهو مطلع لقصيدة من ثلاثة أبيات.

(٣) الزخرف: ٦٧.

كالدابة والعبد والفلك، كما قال تعالى: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾[٣]، ويقال: فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعًا له وممتثلاً لأوامره ونواهيه؟

قلنا: لما كان طلوعها وغروبها وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلاً مستمرًا اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم سواء شاءت هذه المخلوقات أم أبت، أشبهت المسخر المقهور في الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما.

والثاني: بمعنى أنه فاعل التسخير، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا، فصحت الإضافتان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ولا بعضًا من كل فرد مما سألناه؟

قلنا: معناه: وآتاكم بعضًا من جميع ما سألتموه لا من كل فرد فرد.

فإن قيل: لا يصح هذا المحمل لوجهين:

أحدهما: أنه لا يحسن الامتنان به.

الثاني: أنه لا يناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[٤].

قلنا: إذا كان البعض الذي أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه وهو الأصلح والأنفع لنا في معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذي منعه عنا لمصلحتنا أيضًا، لا يحسن الامتنان به ويكون مناسبًا لما بعده.

وجواب آخر: عن أصل السؤال: أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضًا

---

(١) الزخرف: ١٣.
(٢) الزخرف: ٣٢.
(٣) إبراهيم: ٣٢.
(٤) إبراهيم: ٣٤.

من كل فرد مما سأله جميعهم، وبهذا المقدار يصح الإخبار في الآية وإن لم يعط كل واحد من السائلين بعضًا من كل فرد مما سأله، وإيضاح ذلك أن يكون هذا قد أعطى شيئًا مما سأله ذاك، وأعطى ذاك شيئًا مما سأله هذا، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقهما، كما أعطى النبي -عليه الصلاة والسلام- الرؤية ليلة المعراج وهي مسئول موسى عليه السلام وما أشبه ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ والإحصاء والعد بمعنى واحد كذا نقله الجوهري، فيكون المعنى: وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها، وهو متناقض كقولك: إن تر زيدًا لا تبصره؛ إذ الرؤية والإبصار واحد؟

قلنا: بعض المفسرين فسَّر الإحصاء بالحصر، فإن صحَّ ذلك لغةً اندفع السؤال، ويؤيد ذلك قول الزمخشري: لا تحصوها، أي: لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره: وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لاَ تُحْصُوهَا﴾ وهو يوهم أن نعم الله غير متناهية، وكل نعمة ممتن بها علينا فهي مخلوقة، وكل مخلوق متناهٍ؟

قلنا: لا نسلم أنه يوهم أنها لا تتناهى، وذلك لأن المفهوم منه منحصر في أنا لا نطيق عددها أو حصر عددها، ويجوز أن يكون الشيء متناهيًا في نفسه، والإنسان لا يطيق عده كرمل القِفَار وقطر البحار وورق الأشجار وما أشبه ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإن قيل: كيف قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، وعبادة الأصنام كفر، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة، فكيف حسن منه هذا السؤال؟

قلنا: إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم؛ لأن الأنبياء -عليهم السلام- أعلم الناس بالله، فيكونون أخوفهم منه فيكون معذورًا بسبب ذلك.

وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه ألا يبتلي نبيًّا من الأنبياء بالكفر، بشرط أن يكون

متضرعًا إلى ربه طالبًا منه ذلك، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

فإن قيل: كيف قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ جعل الأصنام مضلة، والمضل ضار، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، ونظائره كثيرة فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم، كما يقال: فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي: افتتنوا بسببها واغتروا، ومثله قولهم: دواء مسهل، وسيف قاطع؛ وطعام مشبع، وماء مرو، وما أشبه ذلك. ومعناه: حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء، وفاعل الآثار هو الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فإن قيل: كيف قال: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾، ولم يقل: أفئدة الناس، وقوله: قلوب الناس أظهر استعمالاً من قوله: قلوبًا من الناس؟

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: لو قال إبراهيم عليه السلام في دعائه أفئدة الناس، لحجت جميع الملل وازدحم عليه الناس حتى لم يبق لمؤمن فيه موضع، مع أن حج غير الموحدين لا يفيد، والأفئدة هنا القلوب في قول الأكثرين، وقيل: الجماعة من الناس.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد، فلم سأل إبراهيم عليه السلام الرزق لذريته فقال: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾؟

قلنا: الله تعالى ضمن الرزق والقوت الذي لا بدَّ للإنسان منه ما دام حيًّا ولم يضمن كونه ثمرًا أو حبًّا أو نوعًا معينًا، فالسؤال كان لطلب الثمر عينًا.

وفي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فإن قيل: قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ شكر على نعمة الولد، فكيف يناسبه بعده: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؟

قلنا: لما كان قد دعاء ربه لطلب الولد بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فاستجاب له ناسب قوله بعد الشكر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لمجيبه من قولهم: سمع الملك قول فلان إذا أجابه وقبله، ومنه قولهم في الصلاة: «سمع الله لمن حمده» أي: أجابه وأثابه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ استغفر إبراهيم لوالديه وكانا كافرين، والاستغفار للكافرين لا يجوز، ولا يقال: إن هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ...﴾[1] الآية؛ لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لأبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[2]، والموعدة التي وعدها إياه إنما كانت له خاصة بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؟

قلنا: هذا الاستغفار لهما كان مشروطًا بإيمانهما تقديرًا، كأنه قال: ولوالدي إن آمنا.

الثاني: أنه أراد بهما آدم وحواء -صلوات الله عليهما، وقرأ ابن مسعود وأُبَي والنخعي والزهري ﷺ: ﴿ولولدي﴾ يعني: إسماعيل وإسحاق، ويعضد هذه القراءة سبق ذكرهما، ولا إشكال على هذه القراءة، وقيل: إن هذا الدعاء على القراءة المشهورة كان زلة من إبراهيم -صلوات الله عليه، وإليها أشار بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

فإن قيل: الله تعالى منزه ومتعالٍ عن الغفلة، والنبي -عليه الصلاة والسلام- أعلم الناس بصفات جلاله وكماله، فكيف يحسبه النبي -عليه الصلاة والسلام- غافلاً وهو

(١) التوبة: ١١٤.
(٢) الشعراء: ٨٦.
(٣) الشعراء: ٨٢

أعلم الخلق بالله حتى نهاه عن ذلك بقوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾؟

قلنا: يجوز أن يكون هذا نهيًا لغير النبي -عليه الصلاة والسلام- ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته، وقوله تعالى بعده: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ لا يدل قطعًا على أن الخطاب الأول للنبي -عليه الصلاة والسلام؛ لجواز أن يكون ذلك النهي لغيره مع أن هذا الأمر له.

الثاني: أنه مجاز معناه: ولا تحسبن الله مهمل الظالمين وتاركهم سدى، أي: لكون هذا من لوازم الغفلة عنهم.

الثالث: أن النهي وإن كان حقيقة والخطاب للنبي -عليه الصلاة والسلام؛ فالمراد به دوامه وثباته على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[2]، ونظير هذا النهي من الأمرين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾[3]، وقول بعض المفسرين: إن معنى الآية يأيها الذين آمنوا بموسى أو بعيسى آمنوا بمحمد -عليه الصلاة والسلام- لا يخرج الآية عن كونها نظيرًا؛ لأن الاستبدال بالإيمان باقٍ، فتأمل.

***

(١) القصص: ٨٧.
(٢) القصص: ٨٨.
(٣) النساء: ١٣٦.